اختلاف المفسرين في الدلالات التصريفية

د/ عادل مقراني

جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة–

الملخص

يعد اختلاف المفسرين في الدلالات التصريفية من أهم الجوانب اللغوية التي بان أثرها ،وتجلت فوائدها البيانية والبلاغية ،وقد تنوع الاختلاف تبعا لموطن الدلالة التصريفية المختلف فيها، ومن أهمها: اختلافهم في دلالات أبنية الأفعال، وأبنية الأسماء ،وأبنية المشتقات. فنتج عنها ثروة معرفية لغوية وعقدية وفقهية تستند في أصلها على هذا التنوع الدلالي للدلالة التصريفية.

شكل الجانب اللغوي للقرآن الكريم محورا مهما في حقل الدراسات اللغوية والشرعية، وكان ذا أهمية بالغة بالنسبة للمهتمين ببيان المعاني القرآنية،أو الراغبين في معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم.

وتعد الدلالات التصريفية مظهرا من مظاهر الإعجاز القرآني؛ لأن تعدد الأبنية والصيغ يدل على تعدد المعاني وكثرتها،فبها يستعين المفسر لتجلية معاني كتاب الله تعالى الجليلة،وتوضيح أحكامه العملية، وإبراز عقيدته الصافية الغراء والكشف عن الحكم والنكت البديعة فيه.

وقد كان لاختلاف الدلالات التصريفية صلة وثيقة وأثر بين واضح في اختلاف المفسرين، ويتضح هذا من خلال الوقوف على:

- معنى الدلالة التصريفية وأهميتها في التفسير.
- اختلاف المفسرين في دلالات أبنية الأفعال.
- اختلاف المفسرين في دلالات أبنية الأسماء.
- اختلاف المفسرين في دلالات أبنية المشتقات.

المطلب الأول

الدلالات التصريفية وأهميتها في التفسير

الفرع الأول: مفهوم الدلالة التصريفية.

قبل ذكر مفهوم الدلالة التصريفية أعرج على تعريف التصريف لغة واصطلاحا:

أولا: تعريف التصريف:

أ – لغة: يدور حول التغيير والتحويل، قال الراغب الأصفهاني: «والتصريف كالصرف إلا في التكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة ».[1]

وقال الخليل:« وتصريف الرِّياحِ: تصرفها من وجهٍ إلى وَجهٍ، وحالٍ إلى حال، وكذلك تصريف الخيول والسيول والأمور ».[2]

وقال ابن فارس:« صرف:الصاد والراء والفاء معظم بابِهِ يدل على رجع الشيء، من ذلك صرفت القومَ صرْفاً وانصرفوا، إذا رجعتهم فرجعوا ».[3]

ب – اصطلاحا: تعددت واختلفت تعاريف الصرف والتصريف لاختلاف مراحله الزمنية التي مر بها[4]، ومن أصح هذه التعاريف:

1- « علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلمة التي ليست بإعراب ».[5]

2- « التصريف عبارة عن علم يبحث فيه عن أحكام بنية الكلمة العربية، وما لحروفها من أصالة وزيادة وصحة وإعلال وشبه ذلك».[6]

وذكر ابن عصفور الإشبيليأن التصريف قسمان: « أحدهما :جعل الكلمة على صيغة مختلفة لضروب من المعاني...والآخر من قسمي التصريف: تغيير الكلمة عن أصلها من غير أن يكون ذلك التغيير دالا على معاني طارئة على الكلمة ».[7]

ثانيا: مفهوم الدلالة التصريفية:

فأما **الدلالة لغة** فهي:مصدر الفعل دل يدل، قال ابن فارس:« الدال واللام أصليان: أحدهما: إبانة الشيء بأمارة تتعلمها...نحو قولهم: دللت فلانا على الطريق، والدليل: الأمارة في الشيء وهو بين الدلالة والدلالة ».[8]

وقيل في تعريفها :هي« ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعاني ودلالة الإشارات والرموز».[9]

وأما **مفهوم الدلالة التصريفية** فهي:

« الأثر المعنوي المستفاد من بنية الكلمة ومن التغيرات التي تحولها إلى أبنية مختلفة ».[10]

ولكل ية دلالة معينة تساعد في تحديد نوع الكلمة، كما أنها تكشف لنا معانيها ودلالتها مجردة، فإذا أدرجت في السياق كان حاكما عليها في الانصراف إلى بعض المعاني دون غيرها.

وهذه المسألة هي التي وقع ويقع فيها اختلاف المفسرين من جهة تحديد الدلالات التصريفية التي يوظفونها في التدليل لآرائهم، ويتخذونها حجة لأقوالهم، كما يستعينون بها في ترجيح الأقوال.

الفرع الثاني: أهميتها في التفسير.

فعلم التصريف ودلالاته من أهم العلوم للمفسر ؛ لأنه لسان العرب الذي يفهم به كتاب الله تعالى،كما قال الشاطبي:

«فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة ».[11]

ولا شك أن التصريف هو ميزان العربية، كما قال ابن جني :« وهذا القبيل – أعني التصريف- يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم الحاجة، وبهم إليه أشد فاقة لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يتوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس ولا يتوصل إلى ذلك إلا عن طريق التصريف....فلهذه المعاني ونحوها كانت الحاجة بأهل العربية إلى التصريف ماسة، وقليلا ما

يعرفه أكثر أهل اللغة لاشتغالهم بالسماع عن القياس»،[12]وقال ابن عصفور:« التصريف أشرف شطري العربية وأغمضها، فالذي يبين شرفه، احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية من نحوي ولغوي إليه أيما حاجة لأنه ميزان العربية».[13]

فعلى المفسر أن يكون عارفا بعلم التصريف ؛ لأن : « التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ».[14]

وكما قال الزركشي :«وفائدة التصريف حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى واحد فالعلم به أهم من معرفة النحو في تعرف اللغة لأن التصريف نظر في ذات الكلمة والنحو نظر في عوارضها وهو من العلوم التي يحتاج إليها المفسر ».[15]

بل هناك من العلماء من يرى تقديم معرفته على معرفة النحو، والوقوف على الدلالات التصريفية لألفاظ القرآن الكريم يكشف عن درر ومعاني جليلة، ويميط اللثام عن كثير من الحكم والأحكام القرآنية التي خص بها العارفون بهذا العلم الشريف،ومن اللطائف الدالة على هذا :

المثال الأول: قول تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50)﴾[المدثر: ٥٠].

ذهب جمع من المفسرين[16] إلى أن **المستنفرة** بمعنى النافرة، فجعلوا استفعل بمعنى المجرد مثل عجب واستعجب، وسخرو استسخر ، كما قال الطاهر بن عاشور:«والسين والتاء في ﴿مستنفِرَةٌ﴾ للمبالغة في الوصف مثل: استكمل واستجاب واستعجب واستسخر واستخرج واستنبط، أي نافرة نفاراً قوياً فهي تعدو بأقصى سرعة العدو».[17]

ولكن ابن القيم بنظره الثاقب وحسه البلاغي قال:« وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة ؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور ، فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه ».[18]

المثال الثاني: قال تعالى ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) ﴾[الحج: ٢].

قال الزمخشري« لم قيل: ﴿ مُرْضِعَةٍ ﴾ دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع: تي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة؛ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ».[19]

وقال الطاهر بن عاشور:«والتحقت هاء التأنيث بوصف مرضعة للدلالة على تقريب الوصف من معنى

الفعل، فإن الفعل الذي لا يوصف بحدثه غير المرأة تَلحقه علامة التأنيث ليفاد بهذا التقريب أنها في حالة التلبّس بالإرضاع، كما يقال: هي ترضع، ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يقال: كل مرضع ؛ لأن هذا الوصف من خصائص الأنثى فلا يحتاج معه إلى الهاء التي أصل وضعها للفرق بين المؤنث والمذكر خيفة اللبس، وهذا من دقائق مسائل نحاة الكوفة، وقد تلقاها الجميع بالقبول ونظمها ابن مالك في أرجوزته "الكافية" بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يخص * عن تاء استغنى لأنّ اللفظ نص

وحيث معنى الفعل تنوي لتاء زد * كذي غدت مُرضعة طِفلاً وُلِد ».[20]

المطلب الثاني

اختلاف المفسرين في دلالات أبنية الأفعال.

تعددت أبنية الأفعال واختلف علماء اللغة في بعضها، فنتج عن هذا اختلاف في دلالات أبنية الأفعال التي استعان بها المفسرون في تفسيرهم وتوجيههم واستنباطهم لبعض الفوائد والحكم والأحكام الفقهية والعقدية، وتمثيلا لهذا ما يأتي:

المثال الأول: قال تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) ﴾ [مريم: ٢٣]. اختلف المفسرون في دلالة "**أفعل**" إلى مذهبين:

فأصحاب المذهب الأول[21]: ذهبوا إلى أن تعديته بالهمزة قد نقلت دلالته إلى معنى الإلجاء، أي: ألجأها المخاض.

قال الزمخشري:«﴿فَأَجَاءَهَا﴾أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك تقول:جئت المكان وأجاءنيه زيد،كما تقول:بلغته وأبلغنيه، ونظيره ﴿آتي﴾ حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل: أتيت المكان وآتانيه فلان ».[22]

وقال الشنقيطي:«وقوله :﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾أي: ألجأها الطلق إلى جذع النخلة، أي جذع نخلة في ذلك المكان، والعرب تقول: جاء فلان، وأجاءه غيره، إذا حمله على المجيء ».[23]

وقال الطاهر بن عاشور:«و أجَاءها معناه ألْجأها، وأصله جاء، عدي بالهمزة فقيل: أجاءه، أي جعله جائياً، ثم أطلق مجازاً على إلجاء شيء شيئا إلى شيء، كأنه يجيء به إلى ذلك الشيء، ويضطره إلى المجيء إليه، قال الفراء: أصله من جئت وقد جعلته العرب إلجاء، وفي المثل: شر ما يُجيئك إلى مُخة عرقوب، وقال زهير:

وجارٍ سارَ معتمداً إلينا * أجَاءته المخافةُ والرجاء ».[24]

وأما أصحاب المذهب الثاني:ذهبوا إلى عدم انتقال دلالته بعد التعدية ،كما قال أبو حيان :«ومعنى ﴿فَأَجَاءَهَا ﴾أي جاء بها تارة فعدي جاء بالباء وتارة بالهمزة، قال الزمخشري :إلاّ أن استعماله قد يغير بعد النقل

إلى معنى الإلجاء الإتراك، لا تقول: جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول: بلغته وأبلغنيه، ونظيره **آتى** حيث لم يستعمل إلاّ في الإعطاء، ولم يقل آتيت المكان وآتانيه فلان انتهى. أما قوله وقول غيره إن الاستعمال غيره إلى معنى الإلجاء فيحتاج إلى نقل أئمة اللغة المستقرئين ذلك عن لسان العرب، والإجاءة تدل على المطلق فتصلح لما هو بمعنى الإلجاء ولما هو بمعنى الاختيار كما لو قلت: أقمت زيداً فإنه قد يكون مختاراً لذلك وقد يكون قد قسرته على القيام ».[25]

ونص الراغب على هذا المذهب،فقال:«يقال:جاءه بكذا وأجاءه، قال تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ ﴾ قيل ألجأها، وإنما هو معدى عن جاء ».[26]

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ (17)﴾[البقرة: ١٧].اختلف المفسرون في دلالة ﴿ اسْتَوْقَدَ﴾- **استفعل**- على قولين:

القول الأول: قالوا إن استوقد "**استفعل**" على بابه وهو للطلب، فيكون معنى الآية: كمثل الذي طلب الإيقاد وطلبه يقتضي الحاجة إليه، فانطفاء النار مع حاجته إليها أنكى له.

قال البيضاوي :«استوقد والاستيقاد طلب الوقود والسعي في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها »،[27] وقال ابن الجوزي ناقلا هذا القول؛ وإن كان يرى خلافه :«وفي قوله تعالى﴿اسْتَوْقَدَ ﴾ قولان:

أحدهما: أن السين زائدة، وأنشدوا:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أراد: فلم يجبه، وهذا قول الجمهور، منهم الأخفش وابن قتيبة.

والثاني: أن السين داخلة للطلب، أراد: كمن طلب من غيره نارا».[28]

القول الثاني: وهو أن "**استفعل**" بمعنى" **أفعل**"، وهو قول جمهور المفسرين.

قال الطاهر بن عاشور :«﴿ اسْتَوْقَدَ﴾ بمعنى" **أوقد**" فالسين والتاء فيه للتأكيد كما هما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]وقولهم استبان الأمر وهذا كقول بعض بني بولان من طي في الحماسة:

نَسْتَوْقِد النبل بالحَضيض ونَصْ * طَادُ نُفوسا بُنَتْ علَى الكرم

أراد: وقودا يقع عند الرمي بشدة. وكذلك في الآية لإيراد تمثيل حال المنافقين في إظهار الإيمان بحال طالب الوقود بل هو حال الموقد ».[29]

المطلب الثالث

اختلاف المفسرين في دلالات أبنية الأسماء

مما اختلف فيه المفسرون في باب التصريف دلالات أبنية الأسماء ، سواء كانت مصادر أو جموعا أو تأنيثا أو تصغيرا أو نسبا ، وقد نتج عن اختلافهم هذا اختلاف في كثير من القضايا التفسيرية التي لا حصر لها عدا وتمثيلا، ومن نماذج اختلافهم في هذه الحيثية التصريفية ما يأتي :

المثال الأول: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[التغابن: ٩].

اختلف المفسرون في معنى ﴿ التَّغَابُنِ ﴾ إلى قولين:

القول الأول: ذهب بعضهم إلى أنه من غبن الشيء إذا أخفاه، وسمي به يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى أخفاه، قال الماوردي:

«ويحتمل رابعا: لأنه اليوم الذي أخفاه اللّه عن خلقه، والغبن الإخفاء ومنه الغبن في البيع لاستخفائه، ولذلك قيل مغابِن الجسد لما خفي منه ».[30]

القول الثاني: وذهب كثير من المفسرين إلى أنه النقص وفوت الحظ، ثم اختلفوا في اعتبار هذا النقص وفوت الحظ إلى غير ذلك من التوجيهات ، ومنها:

أ– « المعنى أن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة، فوقع الغبن، لأجل مبادلتهم الخير بالشر،والجيد بالرديء، وَالنعيم بالعذاب، على من أخذ الأشد وحصل على الأدنى ».[31]

وقال ابن الجوزي :«التغابن تفاعل من الغبن، وهو فوت الحظ والمراد في تسميته يوم القيامة بيوم التغابن فيه أربعة أقوال : أحدها:أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة فيرث ذلك المؤمن فيغبن حينئذ الكافر ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ».[32]

وقال الزمخشري:«التغابن: مستعار من تغابن القوم في التجارة؛ وهو أن يغبن بعضهم بعضا، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء. وفيه تهكم بالأشقياء؛ لأنّ نزولهم ليس بغبن ».[33]

ب– قيل سمي بذلك لأن فيه يظهر غبن كل كافر بتركه للإيمان، وغبن كل المؤمن لتقصيره في الإحسان ،قال ابن الجوزي: «والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان ذكره الثعلبي ».[34]

وقال الثعلبي:«قال المفسّرون: من غبن أهله منازله في الجنّة فيظهر يومئذ غبن كلّ كافر ببركة الإيمان، وغبن كلّ مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيّام ».[35]

والراجح هو القول الثاني لأن جميع هذه المعاني تدخل في دلالة التغابن.

المثال الثاني:قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) ﴾[القمر: ٥٤].

وهذا الموضع مما جعلوا فيه المفرد دالا على الجمع في لفظة ﴿وَنَهَرٍ﴾ ، ولكنهم اختلفوا في تخريجه على قولين:

قال ابن عادل:«قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾العامة بالإفراد، وهو اسم جنس بدليل مقارنته للجمع والهاء مفتوحة كما هو الفصيح، وسكّنها مجاهدٌ والأعرج وأبو السَّمَّال والفياض وهي لغة تقدم الكلام عليها.

قال ابن جُرَيْجٍ: معنى﴿ وَنَهَرٍ ﴾أنهار الماء والخمر والعسل، ووُحِّدَ؛ لأنه رأس آية، ثم الواحد قد ينبئ عن الجمع، وقال الضحاك ليس المراد هنا نهر الماء، وإنما المراد سعة الأرزاق؛ لأن المادة تدل على ذلك كقول قيس بن الخَطِيمِ: مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا * يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا ؛ أي وسعته، ومنه: أَنهرت الجرح، ومنه: النَّهَار، لضيائه ».[36]

فالقول الأول:أن ﴿وَنَهَرٍ ﴾اسم للجنس، والمعنى في جنات وأنهار، وعدل عنه مراعاة لرؤوس الآي .

قال البغوي:« ﴿وَنَهَرٍ ﴾أي أنهار، ووحَّده لأجل رؤوس الآي،وأراد أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل »،[37] وقال البيضاوي :« في جنات ونهر، أنهار واكتفى باسم الجنس ».[38]

وقال الشنقيطي:«أن قوله: ﴿خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠]مفرد أريد به الجمع، أي خلائف،وهو اختيار ابن كثير، والمفرد إن كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مرادا به الجمع كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: ٥٤]؛ يعني وأنهار بدليل قوله:﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ﴾[محمد: ١٥] وقوله:﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: ٧٤] ».[39]

القول الثاني: فالمراد بالإفراد معنى آخر وهو :« الضياء والسعة، ومنه النهار، وممن نقل هذا القول وإن كان لا يراه راجحا الإمام القرطبي بقوله :«وقيل: في ﴿وَنَهَرٍ ﴾في ضياء وسعة؛ ومنه النهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح؛ قال الشاعر: ملكت بها كفي فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها ».[40]

وقال الماوردي: « ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن النهر أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن، قاله ابن جريج.

الثاني: أن النهر الضياء والنور، ومنه النهار، قاله محمد بن إسحاق، ومنه قول الراجز:

لولا الثريدان هلكنا بالضمر * ثريد ليل وثريد بالنهر

الثالث: أنه سعة العيش وكثرة النعيم، ومنه اسم نهر الماء، قاله قطرب ».[41]

المثال الثالث:قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾[المائدة: ٣].

اختلف المفسرون في تخريج ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾التي جاءت بالهاء وهي بمعنى مفعولة لأن الأصل حذف التاء إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن شرط حذف التاء لم يتحقق وهو ذكر الموصوف لذا أثبتت، قال الرازي :« فإن قلت: لم أثبتت الهاء في

﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾مع أنها في الأصل منطوحة فعدلوا بها إلى النطيحة وفي مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة تقول: كف خضيب،وعين كحيل يعني:كف مخضوبة وعين مكحولة؟

قلت: إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعتها موضع الموصوف تقول: رأيت قتيلة بني فلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أم امرأة.

فعلى هذا، إنما دخلت الهاء في النطيحة لأنها صفة لموصوف غير مذكور وهو الشاة ».[42]

وقال القرطبي:« قوله تعالى:﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾النطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، وهي الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت قبل أن تذكى. وتأول قوم النطيحة بمعنى الناطحة؛ لأن الشاتين قد تتناطحان فتموتان. وقيل: نطيحة ولم يقل نطيح، وحق فعيل لا يذكر فيه الهاء كما يقال: كف خضيب ولحية دهين؛ لكن ذكر الهاء ههنا لأن الهاء إنما تحذف من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف منطوق به؛ يقال: شاة نطيح وامرأة قتيل،فإن لم تذكر الموصوف أثبت الهاء فتقول: رأيت قتيلة بني فلان وهذه نطيحة الغنم؛ لأنك لو لم تذكر الهاء فقلت: رأيت قتيل بني فلان لم يعرف أرجل هو أم امرأة ».[43]

القول الثاني: أنها جرت مجرى الأسماء ونقلت من الوصفية، قال أبو حيان :«النطيحة: هي التي ينطحها غيرها فتموت بالنطح، وهي فعيلة بمعنى مفعولة صفة جرت مجرى الأسماء فوليت العوامل، ولذلك ثبت فيها الهاء ».[44]

القول الثالث: فعيلة بمعنى فاعلة لأن الشاتين قد تتناطحان فتموتان، قال الجصاص :« وأما قوله تعالى:﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾

فإنه روي عن الحسن والضحاك وقتادة والسدي أنها المنطوحة حتى تموت، وقال بعضهم هي الناطحة حتى

موت، قال أبو بكر هو عليهما جميعا فلا فرق بين أن تموت من نطحها لغيرها، وبين موتها من نطح غيرها لها »[45].

وقال ابن عطية الأندلسي :« ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾فعيلة بمعنى مفعولة وهي الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت وتأول قوم " النطيحة " بمعنى الناطحة لأن الشاتين قد تتناطحان فتموتان ».[46]

المطلب الرابع

اختلاف المفسرين في دلالات أبنية المشتقات

قد اهتم المفسرون في فهم دلالات الألفاظ بالتحري عن منشئها وأصولها الأولى كشفا عن أصل دلالتها، فهذا الفخر الرازي يقول في صدر تفسيره :« اعلم أن أكمل الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق[47]ثم فصل في أنواعه.

ومعرفة الاشتقاق ودلالاته بالنسبة للمفسر أداة تطويرية لمعاني الألفاظ، فبه تضبط الكلمة بناء على أصلها، وبه تعرف دلالتها الأصلية الحقيقية من الفرعية المولدة.

وقد اختلف المفسرون في دلالة أبنية المشتقات اختلافا كان أثره بينا في جوانب عدة من كتب التفسير، وقبل بيان ذلك أوضح معنى الاشتقاق وأنواعه.

أولا: تعريف الاشتقاق

أ–لغة: يطلق على عدة معان منها: أخذ الشيء من الشيء، ومنها الأخذ في الكلام والخصومة يمينا وشمالا مع ترك القصد،واشتقاق الحرف من الحرف أخذه منه، وكذلك أخذ الكلمة من الكلمة واشتقاق الكلام إخراجه أحسن مخرج.[48]

ب–اصطلاحا: « الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة كضارب: من ضرب وحذر من حذر».[49]

ثانيا: الأمثلة

المثال الأول:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)﴾[الإسراء: ٧٢].

اختلف المفسرون في﴿ أَعْمَى ﴾هل هي اسم تفضيل أم صفة مشبهة ؟ إلى قولين:

القول الأول:أنه اسم تفضيل لأن عمى القلب يتفاضل فيه الناس، قال أبو حيان:« أعمى عن النظر في آيات الله فهو في يوم القيامة أشد حيرة وعمى، لأنه قد باشر الخيبة ورأى مخائل العذاب».[50]

وقد أوضح الشنقيطي هذه الدلالة لأن أعمى قد عطف عليها اسم تفضيل حيث قال:«الذي يتبادر إلى الذهن أن لفظة ﴿ أَعْمَى ﴾الثانية صيغة تفضيل، أي هو أشد عمى في الآخرة،ويدل عليه قوله بعده﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإنها صيغة تفضيل بلا نزاع. والمقرر في علم العربية: أن صيغتي التعجب وصيغة التفضيل لا يأتيان من فعل الوصف منه على أفعل الذي أنثاه فعلاء. كما أشار له في الخلاصة بقوله: وغير ذي وصف يضاهي أشهلا.

والظاهر أن ما وجد في كلام العرب مصوغا من صيغة تفضيل أو تعجب غير مستوف للشروط: أنه يحفظ ولا يقاس عليه، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

و بالندور احكم لغير ما ذكر * ولا تقس على الذي منه أثر ».[51]

القول الثاني:أنها صفة مشبهة ولكن تباينت تفاسيرهم لها، قال أبو حيان:« ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى ﴾إما أن يكون على حذف مضاف أي في شأن الآخرة، وإما أن يكون فهو يوم القيامة أعمى معنى أنه خبر إن لا يتوجه له صواب ولا يلوح له نجح، وقال مجاهد: هو أعمى في الآخرة عن حججه، وقال ابن عباس أيضا:﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ النعم يشير إلى نعم التكريم والتفضيل فهو في الآخرة التي لم تر ولم تعاين ﴿أَعْمَى ﴾وقيل: ومن كان في الدنيا ضالا كافرا فهو في الآخرة أعمى﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ ؛ لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل، وفي الدنيا يهتدي إلى التخلص من الآفات، وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك البتة، وقيل: فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة، وقيل: أعمى البصر، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾[الإسراء: 97]، وقوله:﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) ﴾[طه: ١٢٤] ، وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن إبصار الحق والاعتبار فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار ».[52]

وقال الشوكاني:« المراد من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى، وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى وقيل من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله فهو في الآخرة أعمى».[53]

المثال الثاني:قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) ﴾[البقرة: ١١٧]

وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ﴾[الأنعام: ١٠١].اختلف المفسرون في ﴿بَدِيعُ ﴾إلى قولين:

القول الأول: أن بديع من أبدع فيكون فعيلا بمعنى:مفعل، وهو على هذا القول صيغة مبالغة، ومعنى الآية أي: مبدع السماوات والأرض.

قال القرطبي:«الأولى: قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾فعيل للمبالغة، وارتفع على خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع،كبصير من مبصر. أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله عز وجل بديع السموات والأرض، أي

منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال. وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع».[54]

وقال الآلوسي :«أي مبدعها وموجدهما بغير آلة ولا مادة ولا زان ولا مكان ».[55]

وقال ابن عثيمين :« ﴿بَدِيعُ﴾ فعيل بمعنى مفعل، أي: مبدع ولها نظير في اللغة العربية مثل قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع * يورقني وأصحابي هجوع

فالسميع بمعنى المسمع ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدها على غير مثال سابق».[56]

القول الثاني: بديع من الثلاثي بدع، وبذلك فهو صفة مشبهة باسم الفاعل، قال أبو حيان :«لما ذكر أنه لجميع من في السموات والأرض، وأنهم كلّ قانتون له، وهم المظروف للسموات والأرض، ذكر الظرفين وخصهما بالبداعة، لأنهما أعظم ما نشاهده من المخلوقات. وارتفاع بديع على أنه خبر مبتدأ محذوف،وهو من باب الصفة المشبهة باسم الفاعل. فالمجرور مشبه بالمفعول، وأصله الأول بديع سمواته، ثم شبه الوصف فأضمر فيه، فنصب السموات، ثم جر من نصب. وفيه أيضا ضمير يعود على الله تعالى، ويكون المعنى في الأصل أنه تعالى بدعت سمواته، أي جاءت في الخلق على شكل مبتدع لم يسبق نظيره ».[57]

وقال السمين الحلبي:«وفيه الخلاف المشهور، وقُرِىء بالنصبِ على المدح، ويبدعُ السمواتِ من بابِ الصفةِ المشبهة أضيفت إلى منصوبِها الذي كان فاعلا في الأصلِ، والأصل: ديعُ سماواتُه، أي بَدُعَتْ لمجيئها على شكل فائق حسن غريب، ثم شَبِّهت هذه الصفة باسم الفاعل فنصبت ما كان فاعلا ثم أُضيفت إليه تخفيفاً ».[58]

والراجح أن بديع بمعنى مبدع وهو الذي عليه جمهور المفسرين.

المثال الثالث: قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) ﴾ [الحجر: ٢٢]. اختلف المفسرون في مفرد ﴿ لَوَاقِحَ ﴾كما اختلفوا في دلالتها على قولين:

القول الأول: أن لواقح جمع لاقحة، ومعناها أن الريح هي التي تلقح، وذلك بمرورها على اللقاح فتنقله معه فتوصف بأنها لاقحة، قال ابن عطية :« ﴿ لَوَاقِحَ ﴾على أربعة أوجه:

أولها وأولاها أن نجعلها لاقحة حقيقة، وذلك أن الرياح منها ما فيها عذاب أو حر ونار ومنها ما فيه رحمة بمطر أو نصر أو غير ذلك، فإذا بها تحمل ما حملتها القدرة أو ما علقته من الهواء أو التراب أو الماء الذي مرت ، فهي لاقحةبهذا الوجه، وإن كانت أيضا تلقح غيرها وتصير إليه نفعها، والعرب تسمي الجنوب الحامل واللاقحة وتسمي الشمال الحايل والعقيم ومحوة لأنها تمحو السحاب، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الريح الجنوب من الجنة وهي اللواقح التي ذكر الله وفيها منافع للناس ».

ومن هذا قول الطرماح: قلق لا فبان الرياح * للاقح منها وحائل

ومن قول أبي وجزة: من نسل جوابة الآفاق

فجعلها حاملا تنسل،قال القاضي أبو محمد ويخرج هذا على أنها ملقحة فلا حجة فيه».[59]

القول الثاني:إ ملقحة وأن فاعلا جاء بمعنى مفعل، قال القرطبي :«﴿ لَوَاقِحَ ﴾ بمعنى ملقحة وهو الأصل، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لقحت بخير. وقيل: ذوات لقح، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يلقح الشجر؛ كقولهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضا، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لقحت الناقة "بالكسر" لقحا ولقاحا "بالفتح" فهي لاقح. وألقحها الفحل أي ألقى إليها الماء فحملته؛ فالرياح كالفحل للسحاب ».[60]

وقال الشنقيطي:« الوجه الثاني: أن لواقح بمعنى ملاقح جمع ملقحة، وملقح اسم فاعل، ألقحت السحاب والشجر كما يلقح الفحل الأنثى، وغاية ما في هذا القول إطلاق لواقح وإرادة ملاقح، ونظيره قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره: لبيك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح».[61]

والراجح أن نجمع بين المعنيين، كما قال الطاهر بن عاشور:«و ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ صالحٌ لأن يكون جمع لاَقح وهي الناقة الحبلى. واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سبباً في نزول المطر، كما استعمل في ضدها العقيم ضد اللاقح في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)﴾[الذاريات: ٤١].

وصالح لأن يكون جمع مُلقح وهو الذي يجعل غيره لاقحا، أي الفحل إذا ألقح الناقة، فإن فواعل يجيء جمعَ مُفعل مذكرٍ نادراً، كقول الحارث أو ضرار النهشلي:

لبيك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيحُ الطوايح

روعي فيه جواز تأنيث المشبه به. وهي جمع الفحول لأن جمع ما لا يعقل يجوز تأنيثه.

ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطراً على الأرض؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تَنقُلَ إلى نَوْره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح. وهذا هو الإبّار. وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكتفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر.

ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العملين اللّذين تعملهما الرياح، وقد فُسرت الآية بهما».[62]

خاتمة:

وفي الأخير يمكن القول إن الدلالاتِ التصريفيةَ من أظهر صور الحمال القرآني التي تجلت فيها الجوانب بلاغية والبيانية للقرآن الكريم، ومن أهم المباحث اللغوية التي تميز بها ثلة من المفسرين ممن علا كعبهم في هذه الصنعة ،وبان سبقهم ، فتميز ذوقهم الأدبي .وإن اختلاف المفسرين في الدلالات التصريفية لدليل ساطع على أن القرآن الكريم حمال ذو وجوه ، لا تغلق فهومه ، ولا تنقضي معانيه .

الهوامش

(1) المفردات: الراغي الأصفهاني تحقيق: محمد سيد كيلاني(279/1).

(2) كتاب العين : الخليل،مكتبة الهلال، تحقيق :مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي (109/7).

(3) معجم مقاييس اللغة :ابن فارس ,تحقيق: عبد السلام محمد هارون،دار الفكر، ط:1339هـ ،(161/12).

(4) انظر الكلام عن المراحل التي مر بها علم التصريف: منهج الكوفيين في الصرف لابن صبري غنام ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها قدمت لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، سنة :1418هـ-1997م (1/9-15).

(5) الشافية في علم التصريف:ابن الحاجب،تحقيق:حسن أحمد العثمان ،المكتبة المكية ،ط 1: 1415هـ-1995م ،ص 6.

(6)شرح ابن عقيل ،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر- دمشق -،ط: 1985م (191/4)

(7) الممتع في التصريف: ابن عصفور ,تحقيق: فخر الدين قباوة، دار المعرفة ،ط: 1407هـ (31/1) .

(8) معجم مقاييس اللغة (259/2).

(9) المفردات: (171/1).

(10) دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس, مكتبة الأنجلو المصرية، ط7: 1992م, ص47.

(11) الموافقات: الشاطبي،تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1: 1417 هـ - 1997 م. (64/2).

(12) المنصف لابن جني،تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ،طبعة مصطفى البابي الحلبي،ط1: 1945م ،ص: 5.

(13) الممتع في التصريف (27/1).

(14) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي ,تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ،ط1: 1376 هـ - 1957 م (373/1)..

(15) المصدر نفسه (397/1).

(16) انظر: الدر المنثور:جلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت–ط: 1993م(132/4)..، والنكت والعيون : الماوردي ،تحقيق: السيد بن عبد المقصود ابن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية(147/6) ، وتفسير القرآن: ابن زمنين ,تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد الكنز ، دار لفاروق ، ط1: 1423 هـ – 2002 م (286/2)..

(17) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور,دار سحنون للنشر والتوزيع –تونس– ،ط:1997 م (330/29).

(18) التفسير القيم: ابن القيّم الجوزية ، جمع: أويس الندوي ،تحقيق :حامد الفقي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ص: 503.

(19) الكشاف:الزمخشري, تحقيق:أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان,ط1 :1418هـ-1998م(143/3)..

(20) التحرير والتنوير (189/17).

(21) انظر: تفسير ابن كثير(157/3)،ومفاتيح الغيب: الرازي، دار الفكر،ط1: 1408هـ – 1981 م (526/7)،وفتح القدير:محمد بن علي الشوكاني, تحقيق : عبد الرحمن عميرة دار الوفاء(377/3).

(22) الكشاف (506/2).

(23) أضواء البيان: دار الفكر –بيروت– ،ط: 1415هـ-1995م،(389/3).

(24) التحرير والتنوير (85/16).

(25) تفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي,تحقيق:علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية – بيروت – ط1: 1413 هـ-1993 م (171/6).

(26) مفردات غريب القرآن, ص: 104 .

(27) تفسير البيضاوي،تحقيق:محمد عبد الرحمن المرعشلي،دار إحياء التراث – بيروت- ،ط1: 1418 هـ (39/1).

(28)زاد المسير : ابن الجوزي ،المكتب الإسلامي ،ط3: 1404 هـ-1914 م . (39/1).

(29) التحرير والتنوير (307/1).

(30) النكت والعيون (23/6).

(31) أحكام القرآن: ابن العربي, تحقيق : محمد عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية ،بيروت(260/4).

(32) زاد المسير (282/8).

(33) الكشاف (550/4).

(34) المصدر السابق (282/8).

(35) الكشف والبيان :الثعلبي , تحقيق : محمد بن عاشور ،دار إحياء التراث العربي – بيروت–ط1: 1422 هـ-2002 م،(328/9).

(36) اللباب: ابن عادل الدمشقي , تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ,وعلي محمد معوض,دار الكتب العلمية – بيروت–ط1: 1419 هـ-1998 م، (286/18)..

(37) تفسير البغوي , تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون ،دار طيبة، 1409هـ(437/7).

(38) تفسير البيضاوي (271/5).

(39) أضواء البيان (272/4).

(40) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ,تحقيق : هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب ، ط : 1423 هـ – 2003.م (149/18)..

(41) النكت والعيون (420/5).

(42) مفاتيح الغيب (99/6).

(43) الجامع لأحكام القرآن (49/6).

(44) تفسير البحر المحيط(332/3)، وتفسير البيضاوي(252/2).

(45) أحكام القرآن (297/3).

(46) المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1: 1422هـ – 2001 م (176/2)..

(47) مفاتيح الغيب (13/1).

(48) انظر: الكليات:أبو البقاء الكفومي, تحقيق: عدنان درويش و محمد المصري, مؤسسة الرسالة – بيروت – دط 1419هـ - 1998م, ص: 162..

(49) المزهر: جلال الدين السيوطي , تعليق: محمد حاد المولى بك،المكتبة العصرية –بيروت- ،ط : 1408هـ (346/1) ..

(50) تفسير البحر المحيط (46/6).

(51) أضواء البيان (177/3).

(52) المصدر السابق (46/6).

(53) فتح القدير (246/3).

(54) الجامع لأحكام القرآن (86/2).

(55) روح المعاني: الآلوسي, دار إحياء التراث العربي- بيروت-(7 /242).

(56) تفسير القرآن الكريم : ابن عثيمين، دار الثريا،ط3:2003م،(16/2).

(57) تفسير البحر المحيط (354/1).

(58) الدر المصون: السمين الحلبي,تحقيق:أحمد محمد الخراط,دار القلم. (85/2).

(59) المحرر الوجيز (356/3).

(60) الجامع لأحكام القرآن (15/10).

(61) أضواء البيان (267/2).

(62) التحرير والتنوير (478/13).